

السؤال

أنا - معاذ الله - لا أسأل عن ما هو مكتوب في القرآن ، ولكن لمعرفة الشخصية ، وأنا أرغب في أن أعرف . لماذا مدح الله نفسه في القرآن وفي الصلاة ؟ فإله ليس في حاجة للمدح والثناء من البشر ، فمن نحن ! كما هو في الصلاة حين نقول " سمع الله لمن حمده " ؛ فلماذا هذا الثناء ؟

الإجابة المفصلة

الحمد لله.

روى البخاري (4634) ، ومسلم (2760) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللَّهِ ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ ، وَلَيْسَ أَحَدٌ أَغْيَرَ مِنَ اللَّهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ) . والله تعالى غني عن العالمين وعن مدحهم وعن عملهم ، وهم مهما أساءوا أو أحسنوا لا يبلغون ضرر الله : فيضروه ، ولا يبلغون نفعه : فينفعوه ، فهو غني عنهم سبحانه وتعالى ، وهم الفقراء إليه ، كما قال تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) فاطر/ 15 . ولكن الله تعالى يحب من عباده أن يطيعوه ، وأن يحسنوا الثناء عليه ، ويشكروه ولا يكفروه ، وذلك لحكم كثيرة ومعان جلييلة ، نذكر بعضها :

- أحب الله المدح والثناء الحسن فمدح نفسه وأمر عباده بمدحه والثناء عليه لأنه أهل ذلك ، فأحب من عباده أن يصفوه بما هو أهله ، فإنه حري بهم إن فعلوا ذلك ألا يسيئوا الثناء عليه بما هو بريء منه سبحانه .

- ولأن في مدحه والثناء الحسن عليه بما هو أهله : قياما للحق وعملا به ، وبذلك يقوم القسطاس في السماوات والأرض ، بخلاف ما لو كفروه ولم يشكروه فإنه حري بهم ألا يقيموا العدل بينهم .

- أن في مدحه والثناء عليه مصلحة للعباد في معاشهم ومعادهم ، قال النووي رحمه الله في شرحه للحديث المتقدم : " حَقِيقَةُ هَذَا مَصْلَحَةِ الْعِبَادِ ، لِأَنَّهُمْ يُثْنُونَ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَيْثِيْبُهُمْ فَيَنْتَفِعُونَ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ، لَا يَنْفَعُهُ مَدْحُهُمْ ، وَلَا يَضُرُّهُ تَرْكُهُمْ ذَلِكَ " .

انتهى من "شرح النووي على مسلم" (17 / 77) .

وقال المباركفوري رحمه الله في "تحفة الأحوذى" (9 / 357):

" أحب المدح لِثِيْبٍ عَلَى ذَلِكَ فَيَنْتَفِعَ الْمُكَلَّفُ ، لَا لِیَنْتَفِعَ هُوَ بِالْمَدْحِ ؛ وَنَحْنُ نُحِبُّ الْمَدْحَ لِنَنْتَفِعَ وَیَرْتَفِعَ قَدْرُنَا فِي قَوْمِنَا ؛ فَظَهَرَ

مِنْ غَلَطِ الْعَامَّةِ قَوْلُهُمْ : إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْمَدْحَ ، فَكَيْفَ لَا نُحِبُّهُ نَحْنُ ؟ " انتهى بمعناه .

– ولأن في مدحه التعريف بحق قدره ، ولولا ما أمرنا به من ذلك ، وعرفنا عليه : لما أدركنا ما يليق بعظمته وجلاله ، من المدح والثناء الحسن ، ولما تعرفنا على ربنا بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ، فإن معرفة ذلك هي أساس مدحه والثناء عليه ، وهو أساس معرفة العبد بربه .

– أن مدحه سبحانه ينفي عن العبد صفات الكبر والتعالي والفخر ، فإن الذي لا ينسب الفضل لله ، فيحمده عليه : ينسبه لنفسه فيطغى ، ويتعالى على الخلق ، كما فعل قارون لما ذكره بالله وبنعمته عليه : (قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي) القصص/ 78 ، فكان ذلك سببا لتعاليه على الناس وفخره بنفسه ، فحسف الله به وبداره الأرض ثم قال تعالى : (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعُلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) القصص/ 83 .

– مدح الله جل جلاله ، والتعرف عليه بصفات كماله وجلاله وكماله : يفتح للعباد باب القيام حق عبوديته ، فإنهم لا يقدرّون على ذلك ولا يتعرفون عليه إلا بعد معرفة موجبات حمده ، بمعرفة أسمائه وصفاته المقتضية مدحه وحمده والثناء عليه .
– أن بمدحه والثناء عليه سبحانه بما هو أهله ، فتحا لباب معرفة الإنسان بقدره ، من الضعف والقلة والذلة والمسكنة ، فينزل منازل العبودية ، قال ابن القيم رحمه الله:

" الفقر فقران : فقر اضطراري ، وهو فقر عام لا خروج لبرّ ولا فاجر عنه ، وهذا لا يقتضى مدحاً ولا ذمّاً ولا ثواباً ولا عقاباً ، بل هو بمنزلة كون المخلوق مخلوقاً ومصنوعاً .

والفقر الثاني فقر اختياري ، هو نتيجة علمين شريفيين :
أحدهما : معرفة العبد بربه ، والثاني : معرفته بنفسه .

فمتى حصلت له هاتان المعرفتان ، أنتجتا له فقراً هو عين غناه وعنوان فلاحه وسعادته " انتهى من "طريق الهجرتين" (ص 9)
على أننا نقول :

إن السؤال لا يحسن وروده من أصله ، لأنه يرفع المحنة ويدفع التكليف ، فلا مورد له شرعاً ولا عقلاً ، وإذا صح أن يقال : لماذا يمدح الله نفسه ويأمر خلقه بذلك ، مع أنه غني عنهم ، لصح أن يقال : لماذا يأمرهم بالصلاة والصيام والحج والذكر وتلاوة القرآن ؟ أليس غنيا عنهم ؟! وكما أنه سبحانه ليس بحاجة إلى مدح الناس ، فإنه أيضاً ليس بحاجة إلى صلاتهم ولا إلى صيامهم ولا إلى غير ذلك من طاعاتهم .

فينبغي على العبد أن يصرف همهته إلى الانشغال بطاعة الله ، وعبادته على أصل التسليم واليقين والرضا ، وقد قال الله تعالى في الحديث القدسي المشهور :

(يَا عِبَادِيَ إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّوَنِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي ، يَا عِبَادِيَ لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ كَانُوا عَلَىٰ أَتَقَىٰ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا) رواه مسلم (2577) .

تراجع للفائدة إجابة السؤال رقم : (181435) .

والله أعلم .